أسباب التسوّل فى الهند[1]

للأستاذ فهمى عبد الله

إن التسوّل عرض من أعراض الفوضى الاجتماعية ، بل مرض من أمراضها التى لا بد من علاجها و إلا استفحل شرها . والطريقة المتبعة فى الهند للحد من ويلات هذا المرض الاجتماعى هى طريقة الإحسان الفردى أو المنظم ؛ غير أن هذه الطريقة لمساعدة العجزة والمتشردين جعلت الهيئة الاجتماعية تغض الطرف عن أصل الداء، وهو كما قلنا سوء التنظيم الاجتماعى، أما الضمير الإنسانى الحديث فيتطلب تحليل الأسباب الأصلية وتفهمها ؛ كما يتطلب أن تقوم الهيئة الاجتماعية فى الهند بوضع وتنفيذ خطة قومية معينة تهدف إلى منع التسول لا إلى مجرد الحد من مساوئه .

وأول أسباب التسول فى الهند هو بلا شك البطالة التى تنتشر بين الفلاحين فى القرى فيهاجرون إلى المدن حيث لا يجدون عملا يرتزقون منه فيتخذون التسول حرفة لهم. فقد دلت الإحصاءات على أن عدد الفلاحين الذين لا يملكون أرضا فى الهند ولا يجدون عملا فى الزراعة يتزايد من سنة إلى أخرى، ولما كانت الصناعة لا تستطيع أن تستوعبهم جميعا، فإن الكثيرين منهم يهاجرون إلى المدن وهناك يعمل البعض منهم فى تعبيد الأرض أو شق الطرق أو يشتغلون كخدم فى المنازل أو الأسواق، بينما يفضل البعض الآخر الشحاذة لأنها تدر عليهم دخلا أوفر . وللشحاذين فى الهند ، كباقى أصحاب الحرف والمهن الأخرى سواء بسواء ، رابطة أو نقابة ينتظمون فى سلكها وهى التى تمد الشحاذين الجدد بالحماية والتشجيع .

والواقع أن الحياة النقابية أو الطائفية التى يحياها الشحاذون فى مدن الهند الكبيرة هى التى تسهل أمر الانتقال من حياة العمل الشريفة و إن كانت قاسية إلى حياة التواكل والمذلة والفقر فى تلك البلاد . فالرابطة أو النقابة هى التى تدرب الصبيان والرجال على الشحاذة وتلقنهم أصولها وتعلمهم كيف يشحذون وأين يشحذون . وهى التى تحتضن الأطفال الفقراء وتشوههم عمدا حتى يمكنهم استدرار عطف الجمهور ، وهى التى ترعى مصالح الشحاذين بصفة عامة، ويرجع تاريخ "نقابات" الشحاذين فى الهند إلى أقدم العصور ، ولكل نقابة "سرداروها" أو رؤساؤها ، وعدد كبير من الوسطاء والوكلاء الذين تمتد دائرة اختصاصهم إلى القرى والكفور البعيدة . وهم الذين يدبرون أمر المكن للشحاذين فى الأحياء الفقيرة ويمدونهم بالطعام والنقود والملابس القذرة يوما بيوم . وفى المساء يعود الشحاذون إلى رؤسائهم ومعهم ما جمعوا من عملهم اليومى الشاق، فيشترك الكل فى أرباح هذه الشحاذة المنظمة . حقا إنه لعالم سفلى لا تعرف الهند المستنيرة عنه إلا القليل — عالم فيه الكثير من أمثلة الاستغلال الشنيع والمآسى المؤلمة وأحيانا البطولة النبيلة .

(١) مترجمة عن مقالة بقلم الدكتور موكرجى أستاذ علم الاقتصاد والاجتماع بجامعة لكنار بالهند .

إن السبب الأكبر فى انتشار الشحاذة فى الهند هو كما سبق القول ازدياد نسبة الفلاحين الذين يفقدون ملكياتهم الصغيرة ولا يجدون عملا مستديما يرتزقون منه سواء فى قراهم أو المدن التى يهاجرون إليها . يضاف إلى ذلك ما كان لسنى الجدب وارتفاع الأسعار من أثر على الفقراء ، فقد قذفت هذه الحال بالكثيرين الى عالم التسول ، فالفلاحون الذين لا يجدون ما يمسك رمقهم فى قراهم يضطرون الى الهجرة منها التماسا للخبز فى القرى أو البلاد المجاورة ، ومنها الى المدن البعيدة حتى ازداد عددهم زيادة كبرى فى كلكتا وبمباى . ذلك لأن الشحاذ الهندى يستطيع دائما أن يتمتع برحلة بالمجان فى قطار أو على ظهر باخرة أو يسير على قدميه ممارسا حرفته من مرحلة الى أخرى واجدا فى عادات الهند التقليدية والدينية وهى الاحسان والبر بالفقير ما يشجعه على المضى فى طريقه .

وبالنسبة لتزايد عدد السكان فى السنين الأخيرة ولسوء الحالة الاقتصادية بصفة عامة ، فقد ازداد عدد الشحاذين زيادة محسوسة بينما شحت مصادر الاحسان ، فإن عددا كبيرا من الشحاذين الذين يتجمعون بالقرب من الأسواق أو حول المحال التجارية الكبيرة لا يحصلون من الاحسان بقدر ما كانوا يحصلون عليه قبل الضائقة المالية الحاضرة ، ومع ذلك فهم يدأبون على ممارسة مهنتهم واستدرار عطف الجمهور بصبر عنيد هو وليد الاحتمال الطويل ولا يوجد إلا بين الشحاذين الشرقيين .

ومن بين الشحاذين نسبة كبيرة من سليمى البدن وأقوياء الجسم وغالبيتهم من الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، أما الأكثرية الساحقة من الشحاذين فهم من ذوى العاهات البدنية أو العقلية . ففى الهند ١٣٧٠٦٠ من العميان بالمقابلة مع ١١٤٠٠٠ فى الولايات المتحدة ، ومن المصابين بالصمم ٢٣٠٨٩٥ بالمقابلة مع ٥٧٠٨٤ فى الولايات المتحدة ، ومن المصابين بالبرص ١٤٧٩١١ ، وبحسب إحصاء آخر أدق من هذا لا يقل عددهم عن المليون . أما عدد المعتوهين فيبلغ ٩٨٤٤٩ وذلك كله بحسب إحصاء سنة ١٩٣١ ، أما إحصاء سنة ١٩٤١ فلم يبين عدد المصابين بالعاهات .

والذين يعيشون فى القرى من ذوى العاهات لا يجدى لهم نفع احتراف التسول إن آجلا وإن عاجلا ، فإن الكيان الاقتصادى للبلاد ليس من النوع الذى يساعد على إيواء العجزة كما أنه لا توجد مؤسسات اجتماعية للإصلاح أو العلاج .

وتقوم بعض المدن القليلة فى الهند بإحصاء شحاذيها . ففى سنة ١٩٣١ بلغ عدد المتسولين فى بمباى ٥٠٢٥ وفى كلكتا ٣٢٦٦ وفى لكناو حوالى ٢٠٠٠ منهم ٤٠٠ مصابون بالبرص . ولهذا فإن دراسة حالات الشحاذين أمر واجب قبل أن نشرع فى تبيان العلل الاقتصادية والاجتماعية التى تؤدى الى الفاقة والتسول .

إن مدينة "لكناو" هي المدينة الوحيدة في الهند التي تعتبر التسول جريمة يعاقب عليها بالحجز في ملجأ الفقراء التابع لجمعية الخدمة الاجتماعية في المدينة والمعترف به من البلدية لهذا الغرض . وفي هذا الملجأ تدرس حالات المتسولين . ويحتفظ بسجل لكل منهم وذلك منذ تأسيس الملجأ في سنة ١٩٤١ ، وقد ظل الملجأ زهاء سنتين مكانا يأوي اليه العجزة والمعوزون من تلقاء أنفسهم التماسا للقوت والعلاج ، وفي ١٦ مارس سنة ١٩٤٣ ألقى القبض لأول مرة على الشحاذين في المدينة ، وفي أبريل من نفس السنة قام البوليس بحملة أخرى من هذا النوع ولذلك فان لدى إدارة هذا الملجأ معلومات وبيانات عن الدخول الاختياري والحجز الاجباري . وتدل هذه الاحصاءات على أنه قبل صدور القانون بالحجز الاجباري كان عدد اللاجئين ٣٨ لاجئا منهم ٧ سليمو الجسم والباقون من العجزة العميان أو المرضى أو الشيوخ أو المصابين بحوادث ، أما منذ صدور القانون فلم يقبض إلا على ٢٦ شحاذا ، منهم ٤ فقط سليمو الجسم بخلاف مدن الهند الأخرى التي تزيد فيها نسبة الشحاذين سليمي الجسم عن هذه النسبة بكثير . والسبب في قلة عدد الشحاذين سليمي الجسم في ملجأ "لكناو" هو الاعلان الذي قامت به البلدية بواسطة دق الطبول ، فقد أزعج هذا الاعلان الشحاذين ولا سيما الأقوياء منهم فأعطوا سيقانهم للريح وولوا الأدبار حتى أنه لم يبق بملجأ "لكناو" إلا العجزة من العميان والبرص والمعتوهين وتبلغ نسبة المصابين بأمراض عقلية منهم ٣٤ ½ ٪ وهي نسبة تستحق التأمل .

إن نسبة كبيرة من شحاذي كل مدينة في الهند من المرضى بالشذوذ الجنسي والمعتوهين ، والواقع أن السباح للشعوذين والمعتوهين بالسير في الشوارع عراة الأجسام يتناولون طعامهم من القمامات وزبالة الشوارع لهو سبة في جبين الهند الحديثة كذلك كان هناك من لفظتهم الجماعة بسبب عيوبهم الجسمانية فراحوا منذ الطفولة فريسة للهزء والسخرية من المحيطين بهم ولم يجدوا في المجتمع الحماية الكافية فانحدروا إلى عالم التسول راغمين ، ووقع البعض منهم فريسة للمخدرات "كالأفيون" و "الكوكايين" كيما تتوطد أقدامهم في عالم التشرد الذي ارتضوه لأنفسهم بينما اتجه البعض الآخر إلى الناحية العاطفية والاضطلاع بالمسئوليات العائلية وذلك بتبني بعض النقطاء ، ولا شك أن هذه الفئات الأخيرة من المتسولين تستحق العطف والاهتمام العلمي والرعاية المنظمة .

ثم هناك فئة الشحاذين المصابين بأمراض مزمنة مستعصية على الشفاء والتي ستقضي عليهم لا محالة في نهاية الأمر . ولا يوجد ملاجىء في الهند لمثل هؤلاء إلا في "كلكتا" و "بمباي" أما في باقي المدن فيموتون في الشوارع كالكلاب وهم يؤلفون نسبة لا يستهان بها من جمهور المتسولين وحياتهم عبارة عن سلسلة متصلة من الآلام والمرض والشقاء .

أما اللاجئون العميان فقد وجدت أنه تنتشر بينهم روح التآخي والتعاون ، فهم يتعاونون في جولاتهم اليومية ويتقاسمون مواردهم بطريقة اشتراكية ، كذلك هم يتزاوجون فيما بينهم

فتقترن أبنتهم الضعيفة العقل بشحاذ ضرير وبذلك تتوطد العلاقات . وهذا مما يساعد على استمرار الشحاذة بحرفة ، ولقد ظهرت مرة أمام مجلس إدارتنا " بملجأ لكاو " فتاة تعمل كخادمة فى أحد المنازل وتخلى عنها بتلادة من القضة تطالب بالافراج عن والدتها العجوز الضريرة واعدة بأنها ستعولها وأنها لن تعود إلى الشحاذة مرة أخرى . وهكذا ثبت أن قانون "لكاو" ساعد على إعادة العلاقات العائلية بين هذه الطبقات الفقيرة ، فان تفكك هذه العلاقات وانحلال أواصر المودة بين الأسرة الواحدة وحالات الطلاق والانفصال بين الزوج وزوجه قد قذفت بالكثيرين من الأولاد إلى عالم التشرد والتسول إلى أن استقر بهم المقام بين جدران ملجئنا ، كذلك هجر الأزواج لزوجاتهم هو من بين أسباب التسول بين النساء اللواتى لا يجدن فى الدعارة ما يقوم بأود حياتهن ، ومن المظاهر المؤلمة أن كثيرا من المتسولين يحترفون السرقة أو تجارة الرقيق الأبيض ، وقد أظهر الكشف الطبي أن بعض اللاجئين مصابون بالأمراض السرية .

وتبين من المبالغ التى وجدت مع المقبوض عليهم من المتسولين أن مدينة " لكاو " تنفق فى المتوسط ٥٠٠ روبية يوميا على متسوليها .

ولا شك أن البرص هو من بين أسباب التسول الرئيسية فى الهند ، بل إن المصابين به يمثلون أصعب حالات التسول وأردئها ، إذ يجولون فى الشوارع والأسواق ودور السينما والملاهى ناقلين العدوى لمن يحتكون بهم من الأهالى ، ومن الخطر وضعهم فى ملجأ واحد مع باقى المتسولين ، ولذلك فان ملجأ " لكاو " هو الآن فى صدد إنشاء قسم مستقل خاص بهم .

وهناك طبقة أخرى يفرض عليها التسول فرضا ، أولئك هم الأيتام والمتشردون الذين يلجأ أولياء أمورهم (الشحاذون) إلى تشويههم عمدا حتى يكونوا أقدر على استدرار عطف الجمهور والحصول على معاشهم ، وفى عالم الشحاذين نجد الأطفال يباعون ويشرون فى وضح النهار ، وكلما كان الطفل أبشع منظرا وأكثر تشويها وبالتبعية أقدر على استدرار الاشفاق والعطف كلما غلا ثمنه ، وإذا فشل الطفل فى استدرار عطف المارة ولم يستطع التأثير فيهم بصرخاته التمثيلية المصطنعة فان ولى أمره يعمد إلى تعذيبه بكافة الوسائل حتى يتقن ويجيد هذه الصرخات ، كذلك يتاجر بعض الآباء بما فى أولادهم من تشويهات طبيعية فيستغلونها موردا إضافيا للرزق ، ومن ذا الذى يجيد الشحاذة ويتقن أصولها غير أبناء بجدتها أولاد الشحاذين ، ولذلك فانه لا يرجى أى إصلاح لهذه الحالة بأقل من استصدار قانون لحماية الطفولة و إبعاد هؤلاء الأطفال من الشوارع ، وأخيرا هناك الشحاذون الدينيون الذين يعدون بالألوف و يحدون كل وسائل الإصلاح أو الرعاية .

ولما كانت أسباب التسول متنوعة كان لا بد من تنوع العلاج حتى يتناسب مع فئات المتسولين المختلفة . فاذا ما أريد مثلا اقامة ملجأ لهم فى أية مدينة كبيرة وجب أن يشتمل هذا الملجأ على أقسام خاصة لذوى العاهات والمقعدين والمرضى وأقسام أخرى للمصابين بالبرص والأمراض المعدية . كذلك يجب أن يكون هناك قسم خاص للعميان الشحاذين يتلقون فيه مبادئ القراءة والكتابة حتى يتسنى لهم إعالة أنفسهم فيما بعد . وأخيرا يجب أن يكون هناك مصنع أو مستعمرة زراعية للأقوياء الذين يحترفون التسكع والكسل والبطالة وذلك لتعليمهم حرفة أو مهنة وتدريبهم على الحياة المنتجة الكريمة .

والخلاصة أن الفقر والبطالة وتفكك الروابط العائلية ونظام الطبقات كلها من أهم أسباب الشحاذة وازدهارها فى الهند التى يوجد بها اليوم ٦٠٠٠٠٠ من العميان، و٢٥٠٠٠٠ من الصم والبكم و١٠٠٠٠٠ من المعتوهين ومليون من البرص، وهؤلاء يتزايدون ويتكاثرون مع الزمن دون أن تتخذ الدولة أى اجراء تشريعى للحد من تكاثرهم. ولاريب أنه لا يمكن بعد اليوم ترك علاج هذه المعضلات الهائلة التى تتناول الألوف من المتشردين والمعوزين والعجزة للجهود الفردى وعلى الحكومة ألا تتقاعس بعد اليوم فى الاضطلاع بواجبها الاجتماعى، فإن الفرد مهما صح عزمه لا يستطيع أن يقوم بما تقوم به المعاهد والمؤسسات المنظمة للتخفيف من ويلات الانسانية وآلامها" ؛

فهمى عبد الله

وزارة الشؤون الاجتماعية

" يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم . لا يسألون الناس الحافا " .

قرآن كريم